وتعاظمت على الشيخ الاشجان وتفطر فؤاده فارسل لحاظه الى قاب المعمعة مفتشاً على هاوية يدفن فيها بقية حب ابوي كان جزاؤه الغدر واثار غرام اتى بعد اوانه فسبب للفؤاد الذي حل به بدل السعادة مصائب واشجاناً

فمزق الرسائل ببطء وقال بنفسه اسفي على اتعاب حماني اياها هذا الوالد العقوق وويل لتلك السافلة المبادي التي قدمت لي بدل حبي واخلاصي خداعا اعظم عداوة اخف منه هولاً . والتفت الى هنري قائلا

— ابقَ هنا مكاني لانني اريد ان ارأس الحملة بنفسي

— لم يا ابي تريد ان تحرمني هذا الموت الشريف

فادار القائد رأسه ليخفي دلائل حنق ظاهر ويطفي شرارة لعنة خرجت من لحاظه رغماً عنه وعاد فقال لهنري بهدو متكلف

— هكذا يأمر الملك برسائله و...

واراد ان يتم كلامه فاختنق صوته في صدره واندفع كالبرق الخاطف على الاعداء مناديا جنده . هيا الى الامام

وعلا دخان البارود يحجب اولئك الشجعان عن الابصار ودوت الجبال من رعد البنادق فاخفى صوت ويلات الحرب كلمة لعنة اخيرة خرجت من فم القائد الشيخ الذي سقط على الارض قتيلا فصعدت الى العلاء مع نداء القتلى وانين الجرحى المطالبين بحقوق الانسانية التائهة في بوادي الجهل والضلال ...

أبو الهول

﴿ الجزء العاشر والحادي عشر — السنة الخامسة ﴾

﴿ الاسكندرية في ٣٠ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٩٠٢ ﴾

﴿ الموافق ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٠ ﴾

الشرف

للناس على هذا الشرف اعتماد عظيم وله بينهم اهتمام يفوق منهم كل اهتمام حتى لقد يرتضون به ارتضاء نفوسهم بالحياة واجسادهم بالغذاء ولقد جلت منزلته بينهم حتى اوشكوا ان يتميزوا به بعضهم عن بعض كما يتميز مجموعهم عن عن الحيوانات ولكنهم في اعتقادهم بهذا الشرف على اختلاف كبير وتباين كثير وذلك اتباعاً لاختلاف عقولهم وتباين افهامهم وتربياتهم

فمن الناس من يدعي ان الشرف يكون بالعلم وحده وان من كان اعلم من سواه فهو اشرف منه نسباً واصح انتساباً الى المجد وهذه الدعوى على ما فيها من الصدق في الظاهر لا تعد مقبولة لدى الحقيقة لان شرف العلم لا يتم الا حيث يتم نفعه ولذلك لا يعد كل عالم شريفاً الا اذا كان نفعه تاماً بل كثيراً ما يكون الجاهل ادنى الى الشرف من العالم اذا لم تكن نفس العالم شريفة

وتربيته قويمة لان الشرف انما يقوم بحسن الاخلاق فاذا لم يكن العالم متحلياً بشيء من محاسنها لم يكن له ان يدعي الشرف بل قد يكون الجاهل الحسن الاخلاق عن طبع او تربية ادنى الى الشرف لان الدنيا تقوم بدرء المفاسد اكثر من جلب المنافع . ولهذا يتعين على كل من يريد انزال نفسه في منزلة الاشراف الحقيقية ان يروض اخلاقه باللين والاعتدال قبل ان يروض عقله بالفهم والادراك والا اذا كانت رياضته لعقله سابقة لرياضة نفسه فقد يخرج شريراً لان النفس امارة بالسوء وقد يكون ضرر العالم بما اوصله اليه العلم من الحيلة والاستنباط اشد من ضرر الجاهل لان هذا يؤذي نفسه وغيره اذية مقبولة وقد لا تكون صادرة عن قصد لعدم تكمل الفهم باصدارها وذاك يؤذي غيره فقط اذية شديدة بتكمل امتداد العلم بالامتداد فيها ولكنه لا يؤذي نفسه لانه يكون بصيراً بالاتقاء واسباب النجاة في محاولته ما يفعل . وعلى الجملة فان العالم لا يكون شريفاً بعلمه وحده بل ينبغي ان يقترن علمه بوداعة نفسه وادب ضميره وبذلك يحوز منتهى الشرف من الناحيتين

ومن الناس من يدعي ان الشرف لا يكون الا حيث يكون المال على كل حال وهي دعوى صادقة في الظاهر ايضاً لان الذي يبدو من المال انه يكون سبب البذل والكرامة والابتعاد عن دنيئات الاقوال والافعال . الا ان كل هذه المحاسن التي تصدر من المال انما هي محاسن ناقصة لا يكملها الا جودة الطبع وحسن الخلق وجمال السيرة بحيث يكون الشرف عائداً الى هذه الاوصاف ولا يكون المال الا معيناً على اظهارها او التمادي فيها . وعلى اي حال فان شرف المال وحده لا يحسب لدى الحقيقة الا كاذباً او ناقصاً وان كان لدى الظاهر كل الشرف بعينه بل ان اولي الحكمة والرشاد او اولي

الشرف الصادق الحقيقي لا يرون اتحاد الشرف والمال ممكناً بل هم يرون ان الشريف الحقيقي يصبح دنيئاً ساقطة اخلاقه عائبة افعاله حين يصير ذا مال وذلك لان المال لا يأتي على الغالب الا من حيث تذال الكرامة ويضر الغير وان ذلك اذا كان يصاب به الشريف الصادق حين يحاول الغني وينالـه فكم يصاب به غير الشريف

على ان للشرف الظاهر حالات واسباباً لا تعد ولا تحصى في اعتبار الناس ولذلك لا نحاول بيانها كلها او بيان ما يحضر الذهن منها ولكن الذي نذكره هو ادعاء الشرف من طريق النسب فان هذا الادعاء يكاد ان يكون الحكم على الناس جميعهم او على من تفوتهم معرفة الشرف الحقيقي وهم اكثر الناس ولذلك نجد هذا الشرف قائماً لديهم بمنزلة لا تعادلها منزلة حتى تراهم يبذلون من شرفهم الحقيقي في سبيل محافظتهم على ذلك الشرف الوهمي وكثيراً ما نرى الواحد منهم يجوع ويعرى وهو معزى بانه من سلالة الذي كان شريفاً باغنى او انه ينتسب الى اسرة كذا وقد كان افرادها من اولي المناصب العالية وارباب الحكم العمومي . بل انه قد يكون عالماً بحقيقة الشرف ثم تتغلب عليه عادة الاعتقاد الشائع فيتوهم انه شريف عالي القدر لان اباه كان عالماً نافعاً للناس او انه كان حسن الاخلاق باهر الصفات . بل لقد جل الاعتداد بالشرف بين البرايا حتى صاروا يشترونه شراء حين لا يكون لهم مجاناً او ارثاً ولذلك كان الكثيرون منهم يبذلون ما استطاعوا ليسجل لهم بين الناس انهم منتسبون الى الانبياء العظام والاولياء الكرام وهو ما يقال انه منتشر في الشرق بالخصوص ويدل على صدق ما نقوله عن عظيم الاعتداد بالشرف والهوس به والاعتقاد بانه غذاء الارواح وعزاء النفوس

اما الشرف الحقيقي فقد بيناه بانه يكون حيث تكون مكارم الاخلاق ومحاسن السجايا والابتعاد عن الضرر وان العلم وحده لا يكون شرفاً ذاتياً اذا لم يكن له من ذات الاخلاق معين . واما الشرف النسبي الذي يعتمد فيه على الاباء والجدود ويلتمس التحلي به اعتداداً بشرف حقيقي قديم فربما يعد صادقاً في بعض الحالات بحيث يصح لك ان تعتبر شريف الخلق من كان اجداده شرفاء الاخلاق وتركن عليه من حيث انه محمود السجية معتدل الطبع وذلك لان المرء يشبه النبات فهو يرجع الى اصله وطائفته ولو اختلف مكانه وغير الصنع فيه . فاذا رأيت فلاناً وعرفت ان اباه فلان واجداده فلان وفلان ممن سمعت بمكارم اخلاقهم ومحاسن اقوالهم وافعالهم فثق ان الرجل على شيء من ذلك ولو بدا لك بما بدا من مظاهر الفقر والضعة وسائر المنافيات للشرف الكاذب الشائع وذلك لان جرثومة الشرف او حسن الخلق لا تزال موجودة فيه منتقلة اليه من ابائه واجداده ومن اجل ذلك يقال عندنا وعند سوانا ان فلاناً ابن اصل يريدون بذلك انه شريف حقيقة وكثيراً ما يؤثرونه على غيره في قضاء مهمة او مصاهرة اعتداداً بصدق الارث ولو بدا الرجل لهم فقيراً اوجاهلاً على خلاف المأثور عن ابائه وكل هذا من اجل انه شريف حقيقة اي ان نفسه زكية وطبعه معتدل قويم وانه قريب الى النفع بعيد عن الضرر

ولقد بسطنا كل ما بسطناه عن الشرف للدلالة على ان حقيقته لا تقوم الا بمكارم الخلق وحسن القول والعمل . وهو ما اردنا به كله ان نجعله تمهيداً لذكر الشرف في بلادنا وما يترتب على دعواه والاعتداد به من الضرر الشديد الذي قد يسوق الى ما ينافي حقيقة الشرف كما كاد يجري في فرنسا

لو لم يستدرك شرفها بعض الشرفاء من اولي الحكمة والرشاد فان تلك البلاد كانت الى عهد قريب وهي مقر الشرف المزوق والمباهاة فيه حتى تبين لاشرافها ان التمادي في تقليد الشرفاء الماضين يكاد ينزع منهم الشرف الحقيقي ولذلك اعتدلوا في معتقدهم به وجريهم على مرسوماته فنجحوا واصبحوا اشرافا حقيقيين لان طيب الاصل قد بقي لهم وزادوا عليه مالا لم يكونوا يستطيعون نيله الا من اسباب محدودة ضيقة

فلقد كان اشراف فرنسا فيما مضى لا يباشرون شيئاً من الاعمال الشائعة اعتقاداً بان مباشرتها مما يهين اقدارهم ويخفض اخطارهم ولذلك لم يكونوا يحومون الا على وظائف الحكومة العالية كأن يكون الواحد منهم سفيراً او وزيراً او رئيس ديوان وكان يقتنع من دنياه بانه شريف دون ان يجول في صدره امل لنيل مغنم وزيادة ثروة بل كان اكثر ما يبذل لشرفه من ماله الاصلي حين يقل الراتب عن مبلغ الشرف في اعتقاده وبذلك كان شرفه يبقى واملاكه تزول حتى يصبح فقيراً معدما وليس له من شرفه وطيب اصله ما يقيه شر الفاقة وبالتالي ثلم الشرف بالاحتياج الى الناس

اما الان فقد اقلع اكثر اشراف فرنسا عن تلك الخطة فصار يرى منهم التاجر والبائع والمحترف والمسافر في سبيل الرزق وبهذا بقيت القاب شرفهم مصونة بمقادير اموالهم

على ان فرنسا لم تنفرد في اقلاعها عن تلك الخطة بل ان كل اوربا قد فعلت كذلك ولم تكن فرنسا الا مقلدة لها وبهذا اصبحت سراة ملوكها وهم تجار دون ان يمس ذلك بكرامتهم كما يدعي ابو تمام . اما بلادنا المصرية وبالتالي الشرقية بالعموم فان الاعتقاد بالشرف لا يزال مستحكماً في نفوس ابنائها الى

درجات خالفت حقيقة الشرف فترى الشريف منهم يهون عليه ان يكدي دون ان يكون صاحب دكان او ذا صنعة وذلك لاعتقاده ان المهنة مما يمتهن بها العرض وتذال الكرامة وان بقاءه معدماً شريفاً خير له من ان يكون صانعاً او بائعاً وبهذا سقطت بيننا المقامات التي كانت عالية لان المال قد قل دون صونها ثم حلت مكانها مقامات متعددة جاءت لقوم من كسب المال على الطرق المحالة فارتفع به القدر بما حصل عن اقتدار وبدأ الشرف الحقيقي ينمو ليصير اصلا لفروع مستقبلة تحل محل تلك الفروع القديمة الذابلة التي ايبسها ذلك الاعتقاد الفاسد

فما احرى اشرافنا الان ان يتنبهوا لاحوالهم ويتبصروا في مقادير نفوسهم فاذا كان للواحد منهم بقية مال وكان من الاشراف الحقيقيين الذين يتجملون بمحاسن الاخلاق والصفات ثم استعان به على زراعة ينميها او تجارة يشتغل بها او حرفة يتعلمها فانه يكون مع امواله القليلة ومجده الوافر اكثر ربحاً من سواه واسرع الى النجاح من غيره لان الناس تصبح واثقة به معتمدة على نزاهته وعفة نفسه وطيب اصله او اذا كان شريفاً حقيقياً ولم يكن ذا مال ثم خالف معتقده فتعلم صناعة او خدم في تجارة فانه يبقى شريفاً ويكون قدوة لغيره ممن يأنفون الصناعات والاعمال العمومية ارادة ان ينشئوا بانفتهم مجداً ويبنوا لهم شرفاً وهذا الخلق شائع جداً في الشرق كله وهو سبب فقره واضطراب اموره على الارجح

ولقد هممنا ان ننتهي الى هنا مكتفين بما صورنا به الشرف وما نبهنا اليه من وجوب العمل له حتى يدوم شرفاً حقيقياً ولكننا وجدنا في احدى الصحف الانكليزية خبراً عن مدينة فينا وهو وحده كاف للدلالة على ما قبح

النتائج التي يوصل اليها الاعتداد بالشرف فانها روت انه يوجد في تلك المدينة خمسة الاف سائق للتراموای بينهم خمسون رجلا يتشرفون برتبة البارونية واربعة كونتات واربعمائة مختلفة القاب شرفهم وهم كلهم من ذوي الاصل الطيب والنسب العريق ولكن توارثهم وتوارث ابائهم للانفه من العمل والاشتغال بالمال القديم ليكثر او يبقى على حاله قد اوصلهم الى هذه الدرجة من الفقر حتى صاروا يقودون المركبات الكهربائية ويقبضون بايديهم المترفة على حديد مفاتيحها ولا يتوهمن احد ان في هذا الخبر مبالغة فان برهانه موجود لدينا لان بيننا من امراء الشرق الطاهري النسب الباهري المجد الذين كان لمس الحرير يدمي بنانهم قد وصل بعضهم الان الى نهاية الفقر حتى صاروا مضطرين لاحتراف كل مهنة تتفق لهم ولم يكن هذا الا لانهم كانوا كاشراف فينا المشار اليهم يأنفون من العمل ويعتقدون ان الشرف والاشتغال لا يجتمعان

فعلى اشراف بلادنا ان يستدركوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة منذ الان وان يسيروا على موجب الحكمة الباهرة التي اودعها المتنبي قوله هذا

فلا ينحلل في المجد مالك كله ... فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه ... اذا حارب الاعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده